شعر

رائد وحش

مشاةً نلتقي
مشاةً نفترق

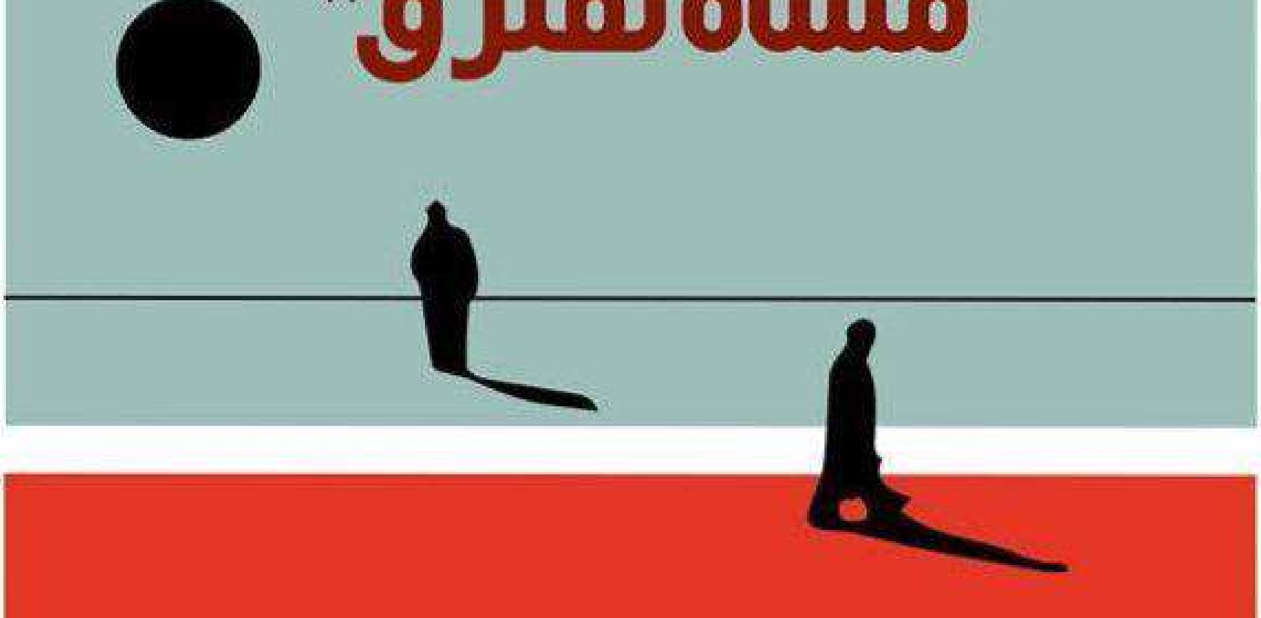

براءات
المتوسط

مشياً نلتقي
مشياً نفترق

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ منشورات المتوسط - إيطاليا.
جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Mušàtàn Naltaqi Mušàtan Naftareq *by* **"Raed Wahesh"**
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: رائد وحش / عنوان الكتاب: مشاةً نلتقي.. مشاةً نفترق
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-31-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

رائد وحش

مشاةً نلتقي مشاةً نفترق

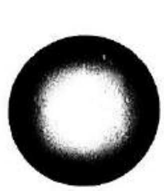

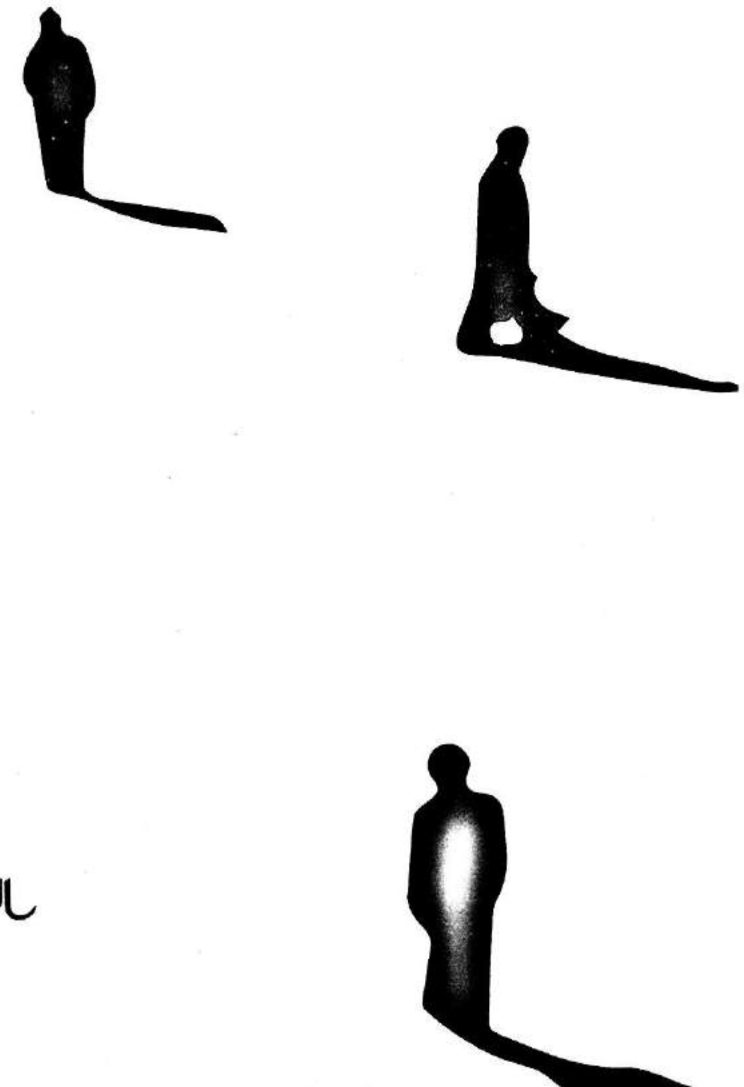

براءات
المتوسط

فاتحة

جئنا من الصَّحراءِ
في أرواحنا الرَّملُ..

جئنا من الموتِ البعيدِ
لننفضَ الكثبانَ والأكفانَ عن أسمائنا
حتى تسمّتْ باسمنا الأشياءُ:
أسماءُ الوجوهِ، وخضرواتُ السّوق،
والأولادُ في الحارات، والوديانُ
والسّهلُ..

نمشي اللّيالي في اقتفاء طريق أهلِ الأرضِ
حتى قالتِ الآثارُ للخطواتِ:
أنتِ البيتُ والأهلُ.

شوارعُ تسير وحدها

شارع ١

تُشَبّه الأمهاتُ الطرق بخطوط الكحل في العيون..
وحين يبكين تسيل الكحلةُ والطّرق.

كلما ظنناها تمسح طريقاً
بيديها عن الخدين
كانت تتفقّد الخارطة.

مناديلهنّ
ملأى بالطرقات.

لا بد من كحل، يقلن،
كي نسمّد تراب الوجوه..
فمن يسفحن ماء عيونهنّ
دون خلطهِ بسواد ما
ستصير وجوههنّ أرضاً بوراً.

تلك طريقتها
في محو الطرقات،
تلك طريقتهنّ في وأد الهجرة.

شارع ٢

إلى زاهر عبد الباقي

اثنان وثالثنا ابنُ الريب
على الطريق السريع..

كان ضبابٌ لكي لا يكون هنالك فرقٌ
بين السيارة والناقة
بين الرمال والجليد.

لم ينبس أحدنا بحرفٍ
أنا وصاحبي ومالك
وظلّت صورنا صامتةً
لا صوت إلا لتناوب رمشاتِ العيون الست
في مرآة السيّارة.

حين رسمتِ الغيوم نشيدَهُ القديم،
حين تأكّد أنّ البياض الذي يقوّيه ضوء القمر
صار صفحةً لحروف الليل المحروقة
عرفتُ أنا وصاحبي،
على طريق لا ينتهي،
أننا حين دَفنا ابن الرّيب،
دَفَنَا في تلك القصيدة!

شارع ٣

أين مقلاعي؟ من أخذ سلاحي؟
أتذكّر أنني خبّأتُه في حفرةٍ.

حفرتُ الحديقةَ
ولا يزال أمامي ترابٌ يكفي ألفَ ميّت.

سأواصل الحفر
لا حياة لأعزلَ.

شارع ٤

مطرٌ أيّتها السّماء
مطرٌ على الوجهِ الصّغير
وإلاّ ضاع بين الأنقاض.

مطرٌ على شكل موسيقى
لعينينِ جفّتا
بلا إغماضٍ..

مطر على شكل أصابع
لشَعْرٍ أيبستْهُ دماءٌ سالتْ من النّحر..

مطر..
مطرٌ..
مطرٌ.. على شكل قلوبٍ
بقدر ما يحتاج البكاةْ
كي يصلوا إلى أيّ شيءٍ
يصلح أن يسمى الغدَ.

شـارع ٥

سنحتاجُ إلى بشرتكِ لترميم التّراب الجريح
ابقي حنطيّةً
ليكون لنا خبزٌ حين تأتي المجاعة.

شارع ٦

رائحةٌ مطريّة يرسلها الشّارع من الشبّاك،
ومن الشبّاك ذاته، يرسل البيت رائحته المطرية إلى الشارع.

مطريةٌ أنفاسُ نوّامِ هذا الليل.
مطريةٌ وجوههم.
مطرية هذه الظلمة البهيمية.
مطريّة رائحةُ نباح الكلب الذي يكبر بحجم فراغ الخوف في الخارج.

الرائحة المطرية العابقة
هي خجل السماء من المجزرة.

شارع ٧

(شبح القائد):

انهشوا ثدييها
اثقبوا فيها ألف دبرٍ،
وأرسلوها في صورةٍ
إلى إخوتها الأبطال..

(أشباح الجنود):

كيف نُري الموتى صورَ الموتى
يا سيّدي؟

(شبح القائد):

اطبعوا الصّور على شواهد قبورهم.

شارع ٨

أعرف أنها العاشرة صباحاً
أعرف أنه الثامن من حزيران
لكنني لست متأكداً من كل ذلك..

لستُ متأكداً
إن كانت هذه حديقة!
ولا أدري لماذا لزهورها رائحة بارود!
وهل تلك نوافذ
أم عيون ميتة!
وهل هذا مطرٌ أم لعابُ شخصٍ يتعرّض للتعذيب؟
وذلك الذي يرتفع مسرعاً
كبرقٍ أسود
من تحت إلى أعلى
أهو طائر أم صراخ؟

أعرف أنها العاشرة
ربما من صباح اليوم أو البارحة
أو حتى من صباح سنةٍ قديمة..
غير أنه لا صباح حقاً

الشمس مخطوفةٌ
والضوء الباقي لا يستطيع دفع فديتها
لدى الغيوم.

أعرف أنها العاشرة
منذ ساعات،
أو أيام..
لكنّني لا أعرف أين أنا!
لا الماضي يمضي
ولا الحاضر يحضر..
كل ما هنالك هو هذه العاشرة صباحاً
التي تحيل كل شيء
إلى مجرد تخمين.

شارع ٩

ذهبت أمي إلى مقهاي
جلستْ كأيِّ واحد من روّاده القدامى
طلبت شاياً
شربته ببطء شديد،
بينما عيونها تبحث عن شبحي.

شارع ١٠

لا يعبر الماء مرّتين

إلاّ الغرقى!!

شارع ١١

باعني اللهُ حياةً فاسدة
وها أنفق الوقت محاولاً إصلاحها.

شارع ١٢

ضميرهُ مثل المسدّس..
يا للضمير الذي يتدّلى من الخاصرة!

شارع ١٣

يحبُّ كحصانٍ..
يبكي كحصانٍ..
حين أراد أن يموت لم يجد من يقتلُهُ
كما يليق بحصان..

شارع ١٤

انفرطت مسبحتها
في الباص الذاهب إلى الحدود
في المسير بين الجبال
ثم في القطار الأخير إلى برلين..

في كلِّ مرةٍ تلمّها دون أن تبالي بصغر المسبحة،
كانت تريدها أثراً على طريق البيت.

شارع ١٥

كيف يكون لنا ما للغيوم؛
تذهب دون أنْ تدري معنى لـ "أين"؟؟
كيف يكون لنا ما للجبال؛
تبقى دون أن تفكر بفلسفة لـ"هنا"؟

شارع ١٦

يفقد البوصلة كل يوم،
يحدث ذلك حين ينتبه أن الطريق لا ينتهي بجبل،
بعد دقيقةٍ
يتذكر أنّه غادر تلك المدينة
التي تنتهي كل شوارعها بالجبل..

يفقد البوصلة
ويفهم أنّ من يضيّع جبلاً
لا يعود هو ذاته..

يفهم الأمر كلعنةٍ؛
من يضيعون جبالهم
يعيشون على سرابها وحسب.

شارع ١٧

- ما هذه العاصفة؟

- مدينة ميتة يبعثرها الهواء النادب.

شارع ١٨

كان يمكن ألاّ نكون غرباء أو حزانى
وألا يمسّنا خوف
لو كنا هنا.

يكفي أن تأتي القسوة،
كما تأتي عادةً،
فنأخذها إلى حانةٍ
لنجهز عليها بالسُّكر مع أشخاصٍ نلتقيهم تواً..
ننام عند شخص لا نعرفه،
ونذهب إلى أبعد المدن سيراً على الأقدام.
وقتها كان يمكن أن نقول:
أقدامنا تفكيرنا المشترك.

شارع ١٩

سقطت قنبلةٌ على المقبرة.

....

قالت الجدة: "يا الله

احمِ أمواتنا"..

شارع ٢٠

خذوا أحلامَ اليقظة من زوايا المقاهي، ومطرَ الموسم الشتويّ، وجدائلَ البنتَ الصغيرة في رسمةٍ لبنتٍ بلا جدائل..

خذوا الطريقَ، البيتَ، المؤونة، أغراضَ الجدة وأدويتَهَا، الطبخةَ الباردة على الموقد..

خذوا كل شيء وأعطوني ربابةً.

شـارع ٢١

شاخ أبي مع أولِ قذيفةٍ
وثوى مطرحَهُ
كمن نسيَ أنَّ له أطرافاً.

شارع ٢٢

بخوفٍ أرعنَ يفتح الجنود المعبرَ لطيفِ ضحكةٍ ساخرةٍ
تمرّ بلا مبالاةٍ..
يتهامسون إذ تغيب:
دِيْسَ بسببها الفمُ،
كُسّرتْ لأجلها الأسنانُ،
أُطلقتِ المدفعيةُ على حنكها،
لكنها ظلّت وقحةً
وساخرةْ.

شارع ٢٣

شجراتُ الصبّار العجائز
شابَ الشّوك في ألواحها،
كلُّ شجرةٍ
تمشي بقدمين حافيتين
لتجلدها كتيبة البلدوزرات
بجرافاتها.

شارع ٢٤

أول جملةٍ كتبها على "فيسبوكهِ": "أحبُّكِ"..

لاحقاً صار يضع واو العطف بدايةَ كلّ جملةٍ يكتبها ليحيل الأشياء إليكِ، وليحيل حبّه إلى كل شيء، وليجعل المفردات والجمل تُعربُ معطوفةً على ذلك الحبّ الذي تجعله الواو مشاعاً لكلّ القلوب.

"أحبُّكِ"؛ "وسدّدتُ ديوني كلها"، "وانقطعت الكهرباء"، "ولينفد المازوت"، "وأكلتُ ملوخيةً بالدجاج"..

"أحبُّكِ"؛ "وتسمّمتُ من غبار مسيرة الثغاء"، "و.. واحريتاه"..

حين رأيتِهِ جامداً بالفم الضموم بين من يعلنونه شهيداً في مقطع فيديو،
عرفتِ أنّ الرصاصة لم تقتل الواو،
وكمن يكبّرُ هتفتِ: "وأحبُّكِ.. وأحبُّكِ"..

شارع ٢٥

تجرّنا الفضيحةُ من جلد وجوهنا
تسلخ ملامحنا،
تجرّنا ضائعين
ينشدون الضياع في بعضهم،
لا في الطريق..

لا تنظروا إلينا
توجعنا عيونكم..

نحسد القتلى على موتهم،
ونلوم القتلةَ على تكاسلهم
في الإجهاز على آخرنا..

لا رجاءَ،
لا رجاءَ.. إلاّ بأنْ نقول للسّوط:
نرجوكَ.. نحتاج فقط شهقةً
نعبّ فيها ما يكفي من الهواء
لنعودَ ونرجوكَ..

نرانا أجانبَ ولا نفهمُنَا

نرانا عقيمين ونبذر سلالة مهزومين
ولا فرق إن انتهوا
في أقفاص سوق النخاسة
أو في خيام اللجوء.

شارع ٢٦

حين تُسدلينَ السّتائر، تُعدمين ضوءَ الغرفة، تدفنين العينين والرأس بمخدّة؛

لمن تتركين المدينة؟
للعساكر عند المفارق يعتقلون الخريف؟
للمروحيّات تطيرُ أشلاءَ الضواحي إلى ضواحي الموت؟
أم لليلِ يراها فراغاً فيزداد ليلاً لكي لا نراها؟

أتنامين وكلابٌ مسعورةٌ تنهش منامات الصّغار؟
أتنامين والصواريخ أيدي غيلان
تخنق صوت المؤذن والمئذنة لئلا يُنادى الصّباح؟

استيقظي..
استيقظي..
ربما يتوقّف كابوس المدينة!

شارع ٢٧

قالت الأم:
أعماني هذا الموتُ، لا تسألْ من لم تعد ترى...
والصرخاتُ التي كان ربعُ ربعِهَا لو رنّ في البعيد يصمني
ها هي ذي تتجوّل في البيت ولا أبالي..
لا تقل لي انظري.. لم تعد تفرق مع عينيْ..
ثلاثة أيام،
تفحصتُ خلالها، من وارء النافذة،
تفسخَ جثة الجار على إسفلت الشارع
كعاملةٍ في مشرحة،
جعلتْ جيراني يظنونني شبحَ الجارة الميتة..

ابقِ يدك علي يدي
ابقها...
أريد أن أعرف إذا ما عاد الدفء
أنّ الحرب انتهت.

شارع ٢٨

أخذوا أسماءنا عند الحاجز فلم نعدْ نعرفُ من نحن..!
لم نسألْ: هل عدنا أم بقينا هناك..؟
لم ندركْ: هل إنّنا في الآن أم في ما فات..؟

لا نحنُ نحنُ،
ولا نحن أشباحُنا،
كي نعرف..

في التّيه لم تبك الأمهات، "ألَاْ يحتجن إلى اسمِ الدموع..؟".
لم يصلِّ الآباء، "ألَاْ يحتاجون إلى اسمِ الله..؟".

تشرنق الأطفال في لا مكانَ ولا زمانَ،
ثمة شيءٌ واضحٌ
هو الشيءُ الذي لا يعرفونه..
نسيَ الأبوان رباطهما
فلم يمارسْهُمَا الحبُّ عريسين،
لا يكفي وصفُ إطباق الشِّفاه على الشِّفاهِ بالحركاتِ،
معنى القبلة في اسمها
والأسماء الضائعُة جرّت العقم إلى الأرحام والقلوب..

أخذوا أسماءنا
ولا بدّ من آدمَ يعلّمنا الأسماء كلّها..
لا بدّ من آدمَ منا،
وما دمنا بدونِهَا فنحن بدونِهِ..

من نحن..؟ ما نحن..؟ لمن نحن..؟
الجوابُ الكبير هناك، في أعالي الأعالي،
في أجنحة طائرات تواصل إبادة الأسماء.

شارع ٢٩

مثل ورّاقٍ في بغداد
بدواةٍ تُعْمِلُ محواً في القرطاس،
بسراجٍ يزيد اللّيل في الليل،
أحاول تخيّل القرنِ الحادي والعشرين..

مثل زيتونةٍ قديمةٍ كانت على ذلك السّفح الذي كالجرح في الجبل،
أستبطن شبح الزيتِ، في شبح الحبّاتِ، على شبح الغصونِ، في شبح الشجرة التي كنتُها..

ومنذ قطعَتْهَا الريح صار السفح جرحاً ينزف في ذاكرة الجبل آلام زيتونةٍ مقطوعةٍ كالوريد..

مثل سرب الغربانِ في لوحةِ فان كوخ الأخيرة
أبحث عما يبقيني طائراً،
لو مجرّد رسمٍ على الجدران المتاحف..

مثل وشم قبيلةٍ سقط من وجه الجدة والتصق بالرمل، ومثل الرمل إذ تصلّي له القبيلة لا أستطيع نكرانَ قرابة الموتى.

مثلها كلها
جعلتني هذه الحرب.

شارع ٣٠

إلى عامر، بائع الفلافل

الحالمُ بالثورة قبل وقوعها قتلته أحلامه
دون أن يدري أن أسعد البشر هم شهداء أحلامهم.

يا أهله؛
يا أصدقاءه؛
يا جيرانه..
ضعوه في المكان الذي يحبُّه
إلى جوار صور الشهداء
التي تملأ جدران بيته..

ضعوه هناك،
بمثله تُشرق الأيقونة.

شارع ٣١

ليس لأنّه من حزب المشائين
ليس لأنه مُبَشِّرٌ بديانة المشي؛
يمشي..

رغم الحواجز،
وحظر التجوال،
وتكسير الأرجل؛
يمشي لئلا تُسرق فكرة المشي.

شارع ٣٢

الصغيرة أفاقت برأس أحمر..
بفم له زعيق سيارة إسعاف..
الصغيرة طارت كملاك
فما ظلّ جريحٌ ولا مفقود
وعادت تكمل لعبتها
في بناء بيت ملون..

تلك الصغيرة التي نامت على نشرة الأخبار
أفاقتِ الحياة الباقية في من بقيَ من أهلها
ليجدوها مدفونةً في ضريح من المكعبات الملونة..

شارع ٣٣

ما تظنّه منفى هو وطن لآخرين،
إذاً،
هذه الأرض منافٍ،
ولا سعادة فيها إلاّ للسياح!

شارع ٣٤

في المدينة القديمة منزلٌ حجريّ بنوافذ خشبيّة مستطيلة.
بين أحجاره عشبٌ أزْهَرَ في بعض المواضع،
ونِمالٌ ونحلٌ تتعايش بسلامٍ لا نجيده.

قرميدهُ يجعلُكَ تخاله نبيذاً يسيل من السّقف..
نبيذاً سيطفو عليه البيت كالقارب حين يكتملُ اندلاقهُ.

أفترض أنه منزل مهجور رغم العجوز التي على الشرفة.
لعلها شبحٌ لا يراه إلا الغرباء!

وما من منزلٍ،
وما من مدينةٍ قديمةٍ،
مجرد صورة أنوء بها في هذا العراء
وأمحوها بصورة الديناميت
حتى ينضم البيتُ وأهلُهُ إليّ.

شارع ٣٥

صرتُ أخاف الجميلات أكثر من الحواجز..
أكثر من القذائف والطائرات
الجميل يحيلني إلى الرثاء..
الجميل كابوس..

لا تحدثني عن المرأة،
لا تقل لي: شفتاها دراقٌ..
نهدها جرس كنيسة..
خصرها برهافة البكاء؟

أنا أفكّر بجثتها فقط.

شارع ٣٦

عندما عرفتِ النادباتُ أنهن سيبكين إلى آخر الموتى
ولن يجدن من يبكي عليهن حين يرحلن،
علّمن الترابَ فنونَ النواح.

خذْ حفنةً منهُ
وانثرها
تسمعِ العويل.

شارع ٣٧

ليتنا رسوماتٌ متحركةٌ،
نرسم للقذيفة ابتسامةً وعيوناً برموشٍ طويلة.
نلوّن وجنتيها بالأحمر،
ونعطي شعرها لون النبيذ،
وعندما يطلقونها
يكونُ الانفجارُ بوالينَ وسكاكرَ وريشاً،
وسبباً للرقص.

نمنح الصاروخ قدمين
فيغادر منصته إلى مخيم اللاجئين
في أحضان الأمهات يبكي كالابن الضالّ
وبين الأطفال يصير أرجوحةً.

نجعل البنادق عكازاتٍ للعجائز،
والطلقاتِ قلائد للفتياتِ.

إذا هربنا تحمينا الأشجار،
تلتف من حولنا مصفحاتٍ خضراء.
إذا اجتاحوا حاراتنا

تهجم الحيوانات داجنةً وبريّةً..
وفي النهاية نرمي الأشرار
برفساتٍ في المؤخرات
خارج الكوكب.

ليت العالم إستديو
ليتنا رسومات متحركة!

شارع ٣٨

الغيومُ المتماوجةُ خيوطاً بيضاً يشعُّ من بينها الأزرقُ،
لا ذهب الشّمس كالعادة،
جعلتْ سماءَ هذا الصَّباح بحراً معلّقاً في الأعلى..

زرقةٌ طائرةٌ
وزبدٌ ينافسُهَا التّحليق..

ليكن البحر فوق
وليس مهمّاً إلى أين ذهبت السماء!
ليكن البحرُ في الأعلى،
لو ليومٍ واحدٍ فقط،
علّنا نذوقُ طعم طوفانٍ،
دون نوح ودون سفينة!!

بريد الغرباء

رسالة ١

أكتب إليكِ من تخوم المجزرة..
رائحة الهواء دمٌ..
طعمُ الصمت الليليّ كراهية مجفّفة..

في اللحظة التي أدق فيها الكيبورد
يدقّ آخرون صدورهم بكاةً،
ولا يتوقفون عن ضرب الرؤوس بالجدران وجدران الهواء.
وبينما ينادون مفجوعين في آذان موتاهم
أناديكِ كالمثكول والأرملة واليتيم..
أناديكِ بحرارة الوجع الطازج..

أكتب لأناديكِ
لا لكي تردي أو لتأتي،
إنما لأطمئن كم تبقى لدي من النداء!

رسالة ٢

حلمتُ بأنني عضو في تنظيم مسلّح.
أرتدي بدلةً عسكرية متواضعة
وأسير في مؤخرة رتل طويل
لا أعرف أولَه [redacted]

كنا في الحارة
لكن الحارة لم تكن موجودةً كما هي،
كما نعرفها.

كنا في الحارة عندما كانت برية كبيرة،
تتوسطها بحيرة.
ما من بحيرة الآن، لكنّي أصدق أنها كانت هنا،
أصدق الأحلام التي ترفض أن تقدّم نفسها
بأقل من أسلوب أيام الخلق الأولى،
لتنافس روايات الله والتاريخ والجغرافيا.

إذاً... لحارتنا ذاكرة بحيرة.
إذاً.. علينا الآن ما كان على أسماكها أمس!

رسالة ٣

إلى أمّي

١

العسكري الذي رَكَز بارودته مكان قضيبه،
وكأنّه يقول لكلّ من يمرون بالشارع:
"سأثقب مؤخراتكم بالرصاص"؛
يشبه الولد الذي ضربني على باب المدرسة،
أو ربما عليّ اعتباره ذلك الصبي
كي أجد مبرراً للركض إليك الآن.
يومها عدتُ إليكِ باكياً فبكيتِ معي..

العسكري ذو القضيب المعدنيّ المنتصب،
لا يعيدني كما عُدْتُكِ طفلاً خائفاً،
لكنْ رجلاً يسأل: هل لك أمٌّ أيها الخوف..؟

٢

وحيدٌ يا وحيدة..
حزينٌ يا حزينة..
غريبٌ يا غريبة..

كذبتْ عليّ القصائدُ والقصص وسِيَر المغامرين. كذبت نداءات الحياة التي ركضتُ خلفها كمضبوعٍ. لطالما حذرتني من شخّة الضبع التي تنتهي بأعتى الرجال عشاءً في مغارة، دون أن تدري أن الحياة نفسها أكبر الضباع.

كل حياة خارج البيت مهانة..!

٣

لماذا ليس لديك أم يا أمي؟
أم بعيدة، في منزل معزول، ليس لديها إلا بضع دجاجات، وآمالُ حياتها تتلخص في عودة الأولاد الغائبين. أحتاج إلى تلك الأم يا أمي كي أجد الطريقة المباشرة التي أقول لك فيها: حظّي في الدنيا أقلُّ من حظّ دجاجة!

٤

المقهى ليس مقهاي، الشارع ليس شارعي، الأصدقاء ليسوا أصدقائي، الخوف لي..
أتذكّر شاعراً كتب "لن يفهمني أحدٌ إلا الزيتون"، ومثله لا أشعر، حتى بيني وبيني، إلا بتلك اللغة الزيتونية..

في حضنكِ،
في العناق العظيم،
غداً سوف أزرع بستان الزيتون الكبير.

٥

من ظلٍّ تعلّمْتُ.
كان المشهد على الشّكل التالي: ظلٌّ إنسانٍ على الرصيف، وما من إنسانٍ. ظلَّ شاردَ البال، أو قلقاً، لا أدري.
عندما تجمّع الناس راح كلٌّ منهم يزعم أن الظلّ له، فالظّلال إن تُركت تثير شهوة الامتلاك.
"تخيّل أنّ ظلين لك، تضع واحداً في البيت كأثرٍ لسلطاتك، وتخرج متأنقاً بالآخر!!"، كلهم فكّروا على هذا النحو.
وما من لبيبٍ أخذ الإشارة: الظلّ رفض الذهاب مع صاحبه المهاجر، ليقين قلبه الظليّ أن بلاداً لا أمهات لنا فيها لن تمنح جنسياتها للظلال.

رسالة ٤

إلى ابن لم يأت

١

يا ولدي المنذور للموتِ..
انجُ بنفسكَ، عدْ نطفةً ليس على بالها الخلقُ..

أبوكَ ميّتٌ هنا، أمّك ميتةٌ هناك
فإمّا أن تموت، وإما أن تحصي الموتى..

يا ولدي مت الآن فربمّا تكون لك فرصة ولادةٍ..

٢

أقتلكَ لعلّني أقتلُ فيك أوديب..

٣

ماذا بوسع الحبّ إذا ما الولادةُ جنازةٌ..؟
ماذا بوسع الأمل إذا ما الوأوأة حشرجاتٌ..؟

٤

اصغِ.. هل تسمع الصّوت البعيد..؟
اصغِ.. تذهبُ جهتَهُ المجهولة

اصغِ.. تسرْ على أذنيك..

اصغِ تدخلْ عمادة الصّوت وتعدْ، كما كنتَ، نداءً..

٥

أقتلكَ الآن لتحيا في الكلمات
وغداً أقتلها؛ الكلماتِ
لتحيا فيكَ..

٦

لو أنك أبي أرسلتُ إليك ملاكاً،
أو شيطاناً،
وبريدي: اقتلني..

٧

لو أنّه زمن السيف والفرسان دعوتك..
تأكل مما تصطاد، تتصعلك أو تغزو لتطعم الجوعى، حتى لو جئتَ عبد
سيأتي من يقول: كرَّ فأنت حرّ..

لو أنه زمن الشِّعر والأغاني دعوتك..
تُنشد الحاناتِ والغواني، وتبيح الفرح على سنطورٍ..

لو أنه زمن الأساطير عقدتُ لك بعمري،
عند العرّاف،
على مصير الأبطال..

٨

أين أهرب بك والمخابئ سرقها الأنبياء؟
المسيح سرق المغارة، وموسى النهرَ..

ثم إنك لا مسيح ولا موسى!!

هل قلت: الأنبياء؟
سأقتلكَ مرتين لكثرة ما قتلونا!

٩

في الغرفة أمطارٌ والخارج صحوٌ..

أشربُ خمراً لأهرب من طلْق أمك
أشرب فأجدكَ تنط في بطني..

أبقرُه فتموت
ومن الثغرة الصغيرة
أتسلّل إلى رحمي
وهناك أموت
حيث كان يجب أن أموت؛
في الولادة.

رسالة ٥

١

أتشممكِ وكأن أنفي يدان..

وكأن رائحتكِ الضوء في هذه العتمات..

٢

عندما التقطوا ذبذباتِ منامي،

أولاد الكلب سرقوكِ..

اللعنة..

اللعنة..

بماذا سأحلم بعد اليوم..؟

٣

من أحبّوكِ تنقصهم شجاعةُ ديك الجنّ الحمصي، كان يجب على أحدهم قتلكِ، لا ليعيش ندامة الخسارة، بل ليقول لنا امرأةٌ مثلكِ لا يليق بها إلا مكانٌ كالندم..

٤

في الغد سوف نرقص

ونغني

ونسكر.

وفي الغد تذهبين
وأبقى أسير البارحة.

رسالة ٦

لا بدّ من نايٍّ،
فبمثله فقط يمكن أن نتعلّم تخبئة الأمكنة في الرئتين.

كان حلمي الكبير أن أُخرج تلك الأصوات من قصبة
لمجرّد أنْ يرقص الناس،
وحين فشلتُ ذهبتُ إلى الكتابة كنوعٍ من التعويض.
فالناسُ يسمون العازف شاعراً.

أكتب إليكِ من تلك الأحلام القديمة،
من رغبتي بامتلاك نايّ يلامس سقف السماء،
كي تلتف حلقة دبكة عملاقةٍ،
تشارك فيها الكائنات كلّها.. كلها؛
اثنتين اثنتين،
ولا حاجة بعدها إلى سفينة نوح.

من الغائبين إلى الغائبين

غياب ١

منذ غابوا،
لا مكان للقاء
إلا المنام..

ينتظروننا كلّ يومٍ
بثيابٍ نظيفةٍ
وذقون حليقةٍ
كما يليق بالمواعيد العاطفية..

يعاتبون عيوننا
إنْ تأخّرت في الإغماض،
ويحزنهم أن يلمسوا فيها
أولَ الإصباح..

يريدوننا أن نبقى هناك
لشدّة ما يقضون وقتاً مملاً..
بينما نتذّرع بأشياء ضرورية
كي نغادرهم إلى حياةٍ
لا نفعل فيها شيئاً

سوى انتظارهم..

هل نحن من نصحو لنلتحق بهم؟
أم أنهم من ينامون لينضموا إلينا؟

كلنا غائبون
عنهم
وعنا
وينقصنا موتٌ يجمع شمل العائلة.

غياب ٢

ألا تزال لكَ تلك العينان الطيبتان كبيتٍ في الريف؟
ألا تزال بذلك الشَّعر الجاف،
إذ يبدو مليئاً بالغبار بمجرّد أن يمرّ عليه ضوءُ الشمس؟
ألا تزال مؤمناً كما لو أن الله وعدك بالنبوّة؟
ماذا فعلوا بك؟
ما الناقص من صورتك؟
قل لنا
ساعدْ خيالنا لنراك؟

غياب ٣

يريدونك أن تبقى حياً
أن تصمد تحت التعذيب لسنواتٍ
لكي لا يموتوا يأساً في انتظارك..

ألم أقل لك:
الأمل مدرسة الأنانيين؟

غياب ٤

كلُّ نظرة من أيّ إنسانٍ هي عين.
هكذا إذاً
لنا مليونُ عينٍ
تطاردُ الأطيافَ الهاربة
والذكرياتِ الصغيرة

مليونُ عين
لكي نصل إلى العمى.

غياب ٥

صورته الوحيدةُ قديمةٌ
كذلك الشّتاء الذي التقطها فيه،
حيث لبس ذلك المعطف.

أمّه كلما طالعتها بين تصاوير العائلة،
غيّرت له ملابسه حسب الفصول،
فالموتى يشعرون بحرارة الطقس حتى في الألبومات.

غياب ٦

يومان وأنا بكمّين فارغين
لا يتوقفان عن التأرجح..

كيف آتي بهما من جديد،
ويداي ترفضان مغادرة منامٍ
تمسحان فيه وجهكِ؟

غياب ٧

أقيس المسافة بيننا بالنقصان؛
الشّيبُ الأكثر
الرموشُ الأقلّ
وقريباً، ربما، اللاوجه..

بغيابي
أقيس غيابكَ..

غياب ٨

صوركَ قليلةٌ
مثل كلّ من يعرفون أنهم ماضون.
لم يكن لديك هاتف ذكي
لتملأه بالألبومات ومقاطع الفيديو
كل ما لدينا أشياء قليلة جداً
عثرنا عليها في موبايلات العائلة
وأغلبها صور جماعية
اضطررنا لقصّك منها
لنوهم أنفسنا أنّ لدينا أثراً منكَ
لو كنا نحبكَ حقاً
لكانت لدينا ألبوماتٌ
التصوير على قدر المحبّة!
وإلا لم يكثر الناس لقطات السيلفي؟

لعلك أردت لنا مواجهةً
لنعيد استخراجك وجهاً وصوتاً
من بئر الصّور والأصوات!
ماذا يفعل من ليس لخيالهم موهبة الرسم
وليس لأحلامهم قدرات الكاميرا؟

أم لعلك كنت تريد المضي نسياً منسياً
وبلا أثر يذكر؟

لا شيء يقول إننا عشنا سوياً،
أنتَ الأكذوبة التي تشاركت العائلة في تصديقها
لثلاثين سنةٍ
وحين أرادت الحياة معاقبتنا
دحضتْكَ وحسب.

صورك قليلةٌ
مثل كلّ من يعرفون أنهم ماضون مبكراً،
ولذا يحيون بيننا بصمتٍ
وهم يُعدون غياباً أقلَّ إيلاماً.

غياب ٩

يحملون أعضاءهم في أكياسٍ
ويسيرون إلى حيث يتسنى لهم تركيبها
كي يلقوا عليها نظرةً أخيرةً
ويدفنوها.

أودعهم من خلف النافذة بالبكاء
معي كلّ مفجوعيهم
وكلما بكينا غام المشهد،
خلف الزجاج،
في بخار الأسى.

في النهاية، هي ساعة رمليةٌ؛
تَفْرغُ كرةُ النسيان
تمتلئ كرة الذاكرة
من الهشاشة إلى الصلابة
وما بينهما
إلى أن يتبعثر الرمل في جهاتهم.

غياب ١٠

الأمهات اللواتي ينُؤْن بالغائبين
يفرحن باللقاء عند بوابة السجن
فلا مكان آخر
صالح لتبادل الأخيلة.

: لكثرة ما كان يحب الأسماك
حوّلت غرفته بحيرةً.

: صرت أهوى فريقه
ولاعبيه المفضلين
أنا التي لا تفهم لماذا يلعب الناس بالأقدام!

: أتراني حلمتُ به
فحبلتُ به؟
أتراني فقدتُهُ يوم ولدته؟
هل ما عشته، كل هذه السنوات، أمومةٌ
أم حمّى نِفاسٍ؟

بنهرِ دموع
تصنعُهُ هذي العيون يغسلن ملابس أبنائهن.

غياب ١١

يوقفني عن رسمه تذكري أنّ لا وجه لي
أنا أنانيٌّ آخر،
أريد استعادة وجهي
لأنهم، حين أخذوهم، أخذوا وجوهنا معهم.

لكنّ المعادلة لا يتساوى طرفاها
إلا حين يكسّرون فمي
ويفقؤون عيوني..
بهذا فقط
نذهب معاً
إلى حيث يجب أن نكون،
إلى غيابنا.

غياب ١٢

لو كنت طيراً لما نزلت إلى الأرض
حتى الماء سأشربه من الغيم..

لو كنتُ حصاناً لما توقفت عن الركض
وإذا جعتُ آكل الريح..

لو كنتُ شجرةً لن أتوقف عن النمو
لأصل مكاناً لا أرى فيه ما كنتُ عليه..

لو كنتُ نهراً لفضّتُ على الضفتين
حتى يجرّب مجراي معنى العطش..

ولو كنتُ إنساناً
لقتلتُ التمني..

غياب ١٣

لو سرنا معاً لوصلنا
لكن هكذا...
كأننا تخلّفنا عن المسير!
أو كأنك غيّرت المسار!
فها نحن الآن
كلٌّ ينوء بعقد الذنب
نقول: تخلّينا عنه! خنّاه!
تقول: أضعتهم! ضيّعتهم!

مع هذا نشعرك معنا
تلهث عند صعود الجبال
وتغضب من مفاوضة المهربين
وتتحفّز من ركوب البحر،
وحين نحتاج أن نبكي
كلما رأينا الدربَ دوننا
نشعرُ بحضنكِ ناقصاً.

أتكون المشكلة في الطريق أم في الماشين؟
في الباقين أم في الذاهبين؟

تلك أسئلةٌ نحدو بها
بينما نعبر الحدود
لنوزّع الأعباء بالتساوي
بيننا والطريق.

مشاةً نلتقي
مشاةً نفترق

الماشون أحياء
الواقفون موتى.

لكنك لست واقفاً أو ماشياً
فمن سيحل المسألة؟

غياب ١٤

أنتَ سواكَ حين تغيب الموسيقى التي تدمنها
وحين تداهمكَ روائح لا كلماتٍ تصلح لوصفها
لكنها تذكّر بأروقة المشافي.

أنت سواكَ حين توقن أنك هنا
مع أن ما تراه مجرد سراب
ومن يرونك، يرونك كسراب فقط..

أنت سواكَ
عند اغتراب الحواس
فسرْ غريباً بين الجميلات
وغريباً بين سياراتهن الأجمل منهن..

وغريباً بين عجوزين
تحلمان بدواء يوصلهما إلى المستشفى
لأخذ الدواء.

وغريباً أمام النظرة الصغيرة
للبنت الأصغر من نظرة..

وغريباً في المكان الغريب
كأنك أنت المكان الغريب..

وغريباً يحفظ الوجوهَ العابرة
وجهاً وجهاً
وكأنّها بقيّة الأهل،
وما كان ليبالي بها
لولا وعدُ الوجوه بهدنةٍ مع المكان.

وغريباً أمام كل شيء
وكأنك لا شيء.

غياب ١٥

لم يتغير شيء أيها الشاعر
سوى أن الأشياء تخلّت
عن ذلك الغموض الذي بثّه الشعر فيها
وباتت واضحةً:
الريف الأخضر أشجاره مشانق
مزارعه سجون
فلاحوه الطيبون إمّا قتلة
أو قاطعو طريق.
الضواحي تفرّخ انتحاريين
وورشات عمالها
صارت مختبرات لصنع الأسلحة.

لم يتغيّر شيء أيها الشاعر
فقط سقطت الجمهورية التي غنيتها
في حرب دينيةٍ
يديرها كفرةٌ
سوف يكملون المذبحة بإخلاص
لم يتحلَّ به مؤسسو الجمهورية.

ستقول: سرقوا الجمهورية

حطموا حلم الاستقلال
وستبرق إلينا،
نحن تلاميذكَ الصغار،
من قبرك المشاد بأبهة القصور
أن نكتب المراثي
أن نفضح اللصوص
دون أن تعي،
بعد كل عمرك في الموت،
أننا نحن الذين رفعنا شعاراتها
بدلاً من أن نلعب صغاراً؛
ونحن الذين أخذونا إلى جيشها
لنشيخ شباباً في الذل؛
نحن أول من سيهدمها
وأول من سيهتف للصوص:
انهبوها
لا نريدها
جمهورية صنعتها المخابرات والشعراء.. لا نريدها.

غياب ١٦

هذه الغيوم أصواتٌ ترى
منذ شُقَّ الفم الأول
وهي تتكاثف من الصراخ
كلّ متألم يضيف إلى السماء كتلة بياضٍ
وعلى المرتاحين في أماكن أخرى
أن يتخيلوها نساء عارياتٍ
بالونات حوار، كما في القصص المصورة،
بين الجبال..
أغناماً ترعى عشباً أزرق.

غياب ١٧

ماذا سأكتب؟
"عيون المها" مفقوءة!!
والمسافة "بين الرصافة والجسر"
حواجز للجيش أو قناصون؟

ماذا سأكتب؟
"قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل"؟
الحبيب مدفون
والمنزل أنقاض
ورائحة المكان تعافها حتى الضّباع!!

بأية لغةٍ أروي موتَ اللغة؟
بأية عقول ستفهمني العقول الميتة؟

غادرت غزلان هذا السهل
أشجاره أُعْدِمتْ
والطيور التي كانت تكتب بأجسادها يومنا
تركت الفضاء نصاً بلا تحرير.
وحده جيش الذباب

الذي كنا قد حفظنا مارشاته
أعاد انتشاره.

ماذا أكتب؟
امنحني حشرجة صوتك يا أبي
فربما آتيكِ بحروفٍ تعرج
وكلماتٍ بتراء
كأطرافِ من أراهم..

غياب ١٨

تركوك بنصف وجهٍ
ثم أعطوك مرآة
لتبكي بالعين الزائلة
على الباقية..
ولترثي بالشفة المبتورة
شفتك الموجودة..

حين توقفوا عن تعذيبك
بدأت ملامحك تغيب
وخلال يومين فقط
خسرتَ ما لم تخسره
في ستة أشهر.

رأيناك في منام جماعي
بنصف الوجه
بالجلد المتقشّر
ببقية كلمات..
عانقناك بعيوننا
خفنا أن تلمسك الأيدي فتوجعك

أو تمحو منك أكثر..

لا تزالُ ترى عناقَ العيون
في منامها الجماعيّ
من الزنزانة الانفرادية
حيث يواصل إخوانكَ ابتساماتِ المنام
دون أن يبالوا بغارات الغارة الليلية..

غياب ١٩

نحن الغائبين بعد قليل
تعلّمنا من السابقين
ألاّ نترك أثراً
وسنعلّم اللاحقين ألا يأتوا.

غياب ٢٠

الحماماتُ البيضاءُ صارت بيضاء
بعدما تعافت من الوجد.

هي سوداء بالأصل
وكلما فقدتْ أحداً كان عليها الطيران وراءه
دون أن تعي أن للغياب قوةً
تضاعف من سرعة الغائبين
وتُسقط السواد من ريشها
شيئاً فشيئاً..

لتعود بيضاء بيضاء من غير سوء
تجلس فوق سطوح المنازل
ولا تبالي بأحد..

الحمامات المبرقعة
قريباً يموت آخر أحبابها
فيتغلب البياض وتتعافى..

غياب ٢١

أهله

كيف مات؟
هل ضربوه على رأسه
فهوى على البلاط بدون حياته؟
أم ظل يئن أسبوعاً
من النزف والجوع والهذيان؟
هل قصدوا قتله؟ أم أنه هو من قرّر أن يموت؟
هل دفنوه؟
أم تركوا جثته تتفسّخ
وتدفن أصحابَهُ رائحةُ الموت؟

الميّت

أنا من أنا الآن؟
نسيتُ من كنتُ
وكيف جئتُ!
ولماذا أنا هنا!

نسيت كل شيء تماماً

بل صرت محايداً
إلى درجة أنني أصبحُ خارج المشهد،
وهم يفتكون بي،
أراهم وأشفق على دأبهم العبثي
في الضرب والتكسير
وذلك الذي أظنّه كان يسمّى جلداً ماتْ
بات كبلاط الغرف
أو جدرانها.

أنا من أنا الآن؟
أظنّني ولدتُ من أم، أظنني أخاً لإخوة كثيرين
أظنّني تزوجتُ
أو أنجبت،
أو ربما لا.. لستُ متأكداً
أظن فقط
أعيش في الظنون
وكلي أمل أن يقتلوها سريعاً.

أهله

حين كنتَ تموت
كنا نهاجر
بينما روحك تحشرج خارجةً منك كنا نخرج
عبر الجبال
إلى البحر..

تئنُ من امتزاج برودة غرفة التعذيب
بحرارة السّياط والعصي،
نحن كذلك
نمشي بردانينَ متعرقينَ
نرتجف من البرد
ونختنق من سخونة الخطوات..

حين ركبنا القارب
كنتَ كذبيحةٍ لا تجد أنينها،
وليس سوى قليل من الوقت
حتى كنا تحتَ الماء
غير قادرين على الصراخ
فالصوتُ يغرق أيضاً.

الميّت وأهله

التقينا
بعد النَّفَس الأخير مباشرةً،
في موتٍ عائليٍّ حميم.

لا تهمنا الأسماء
لا نبالي إلا أنّنا معاً
أما ما بين الموت والحياة
فتلك فروق طفيفة.

غياب ٢٢

لا ترسل لي فيديو
ليست المدن شوارعَ وساحات..

لا أريد ألبوماتٍ
من قال إن الحياة كتالوج؟

إياك أن تتعب نفسك بتصويرها
بتقنية "٣٦٠°"
صورها تبدو منعكسةً على ماء بئر عميق
ولا أريد لمدينتي السقوط في البئر.

ثمة ضبابٌ في ذاكرتي
يجعل شوارعها وحدائقها تختفي
ولا أدري إن كانت قد اختفت فيّ فقط
أم فيها هي الأخرى!

نسيت نصف الأشياء
كأن النسيان ثقب أوزون الرأس،
لم أعد أعرف هل المكتبة يمينَ الساحة أم يسارَها؟

وهل الجامعة بالقرب من نهرٍ كبير،
أم على ضفة بحيرةٍ؟

أعرني عيونك
ليومٍ
لساعةٍ
لدقيقةٍ..
لأجل ألا تختفي دمشق
من رأس أحد.

غياب ٢٣

يُقبلون فرادى أو ثنائيّات
ينبثقون من انعكاس زرقة الفجر
على زجاج النافذة.

هم أسراي الآن
يدورون حولي أملاً في أن يفلتوا
من قبضة منامي.

: أليس لديكم قلوبٌ
تأسى قليلاً
على القلوب التي مزقتموها؟

: كيف لكم أن تيتّموا
أو تثكلوا
أو ترمّلوا بهذه السهولة؟

: لماذا تذهبون
وإلى أين؟

لطالما كنا نناديهم ولا يلتفتون

يعرفون اللعنة؛
من يلتفت يعلقْ عنقُه
في ممرات الهواء الضيقة.

من عبروا
ظلّوا يزورون أحلامنا.

من علقوا
مزقت الصرخات وجوههم
ولن يكون في وسعنا، أو وسعهم،
ترميم صورتها.

ها هم الآن
ليس لهم أفواهْ
ثمة من خاط شفاههم
فاستبدلوا الكلام بالنظرات.

(النظرات التي مات فيها النّظر
وظل الخوف فقط حيّاً في محاجرها)

يتحدثون باتساعها المستعار من عيون الغرقى
من أفواه المنادين تحت الأنقاض
من لهاث المعذبين في ظلام الأقبية؛
يرجونني إيقافَ الاستحضار
وإطلاق سراحهم في العدم السعيدْ..

أتذكر كيف كانوا يمرون غير مبالين
بينما نراقبهم بحياد
كأنهم عميان
وكأننا بلا قلوب..
أتذكر فأواصل الأمر
دون انتباه لتبخر الجدران حولي
لاختفاء البيت
لتلاشي الأفق.

فجأةً، أنا مثلهم
بفم مخاطٍ وعيون تتكلم لغة الاتساع ولهجاتها،
غير مبالٍ
من فينا جلبَ الآخر
إلى الغياب الآخر،
المهم أن نذهب وجهاً واحداً
وجه أمٍّ أو أبٍ
أختٍ أو أخٍ أو صديق،
المهم أن نغدو وجهاً واحداً
هو وجه من يرانا
كي لا يبقى المفقودون غرباء.

مجرد إيقاعات..
مجرد إيقاعات..

النَّاس في الحرب

العابرون على الرّصيف:

ليلَ نهارَ يمشون
قبل الحرب
كانت البلدية تغلق الرصيف
وتكتب: "إعادة تأهيل".

ليلَ نهارَ يمشون
لإعادة تأهيل الرصيف بالخطا.

الصغار:

لا يبالون..
المهم أن يذهبوا،
لو إلى الله،
بثياب العيد..

البنات الجميلات:

من لمعان عيونهن
نعرف كم أكلتِ الغيرة من السّماء
حتى اخترعتِ البرق..

وحين حلّ الصّيف
أرسلت، بالنّكاية، الصواريخ..

الأم:
من خوفي على الأولاد
حبلتُ.

رجل ضجران:
شكراً أيّها الرّصاص، شكراً أيّتها المدافع، شكراً أيتها الحرب:
أخيراً.. أخيراً
اختفى البعوض..

المرأة وشاعرها:
عندما أتحدّثُ إليّ تأتيكَ نوبةُ الكتابة
فتمضي إلى ورقكَ
كمن يمشي في منامه.

أنا، لو تدري، أصاب منكَ بالرّقص..
وهذا القصفُ
مجرّد إيقاعات.. مجرّد إيقاعات..

ابن الجيران:
رماها من الشّرفة
وأبرق إليها:
"الفرشةُ المعطّرةُ بكِ صارت ملكاً للنّازحين الجدد".

الجندي الراكض بابنته النازفة:

رمى سلاحه

رمى الإجازة السّريعة

وركض في البكاء..

حين عاد بدونها

قال لامرأته: "السَّاتان بشرتُهَا.. وكلُّ الأيدي، كلّ القلوبِ بارودٌ".

في الثامنة صباحاً

في الثامنة صباحاً من ساحة شمدين هوى نجمٌ نصالُهُ كادتْ تبقرُ بطن السَّماءِ، فسجلّت أمنيتي: لأكنْ كرديّاً!!

في الثامنة صباحاً جاء الطنبور إلهاً، وأعلن بوترين إطلاقَ سراح الأرض من مدارها الشمسيّ..

في الثامنة صباحاً شكّلت الغيوم عبارة: آزادي.. آزادي.

في الثامنة صباحاً من ساحة شمدين، بينما الأكراد في حقيبتي دفتر مدرسيّ جعلتْهُ أقلامُ الرصاصِ والممحاةُ طلاسمَ مخطوطةٍ محروقةٍ عرفتُ السّرّ؛ لولا أنّهم خربشاتٌ لما اتسعت الدفاتر والحقائب.

ركضتُ في دائرة الساحة
كأنّها ساعةٌ وقدميَ عقاربُ..
ركضتُ فوجدتكِ في النّار قرب كشك السجائر، قرب عربات البغال، قرب المدرسة..
نارٌ أنتِ أينما ولّيتُ وجهي..
صرختُ: "كذب القائلون: تمرّوا في الماء"، وقفزتُ إلى الحريقِ..
لويتُ عنق اللّهب
حتى لانَ وامتطيتهُ..
تعالوا إليّ أنا نرسيسُ النار
تعالوا إليّ لا بدّ من حرائق كي نرى وجوهنا..

وجاء الأطفال الذين هربتُ بهم من الملك المجنون
نطوا من سفح قاسيون ولملموا النَّار شعلةً شعلةً
جمعوها شمسَ ضحىً
ورفعوها معي على الأكتاف..
صرنا كاوا
صارت الثامنة صباحاً نوروزاً يوميّاً..

***

أعيد كتابة الدفتر الذي جعلتْهُ أقلامُ الرصاص والممحاة مخطوطةً محروقةً بالمطواة.. لا طواعية للكلماتِ إن لم تفتحها كعلبِ المرتديلا وتلتهمها بلقمتين..

اكْتُبْ كمن يمّزق اللغة تطردْ "فقهاء الظلام"،

انصبْ فخاخك للعابرين يهربوا من موتهم في الحياة إلى حياتهم في الحكاية..

صدّق كلام الريح، فوجوهنا صخرها المنحوت، (إلا وجهُ أبي احتاج عاصفةً).

صدّق كلام الريح تصبح القصيدة أرضاً لبشرٍ يخرجون من الحروف، من الفواصل والنقاط، من صفرة الأوراق؛

بشرٍ يعرفون كم هو عالمٌ نيّئٌ، وكم كلٌّ منهم طباخ!

أعيد كتابة الدفتر الذي جعلتْهُ أقلامُ الرصاص والممحاة مخطوطةً محروقةً بالمطواة.. أنقي قمح الكتابة من زؤان الرصاص، عسى تصير اللغة محلَّ عِطّارةٍ، عسى الأبجدية تغدو نباتاً..

كل ما يجب إعادة كتابة دفتر العالم

دونما حاجةٍ لأن تذكروني؛
أنا سليم بركات.

***

أترجم ناري
فيترجمني الشِّعر:
منفى يَذْبَحُ بالأبواب..
مجزرةً تكتبها السكاكين لتمزيق جلد النسيان في أجساد طرية الذكراة.
سريرَ نساء رخيصات يعلّم زبونَهُ أنَّ الحب أبعد.
غيماً بطيئاً تُرى فيه أفكارُ الجبال.
بنتاً أكثر حرارةً من ثلوج جبل جودي تشهق وراءها الحصى وحبيباتُ الهواء. الشهقات ذاتها، حين تمضي، تصبح عواءً.. بنتاً تختصر الضائع بين الإنسيّ والوحشيّ، ولا تبلغون خطواتها بأقلّ من عواء..
حياةَ الأشجار التي لا نعرف منها سوى وقوفها العاري.
حرباً حيث تخريف الواقع فيها يجعل الروح مادةً، المستقبل ماضياً. حيث الحاضر أشلاء وقتٍ تهرب مع دخان القذائف إلى وهم الغد..
قصراً يشوي أميرُهُ الملولُ المهرجَ، وحين يولمه للأعيانِ لا يعرفون أيهما الأمير في كوميديا الجنون..
سجناً أسراهُ ليسوا بأسرى ما دامت حكمة الجدار: الأسرى من كانوا بلا أحلام..
جبالاً عالياتٍ علوَ أغاني الأمهات فيها.
مطراً جنونيّاً يصبّه فجرٌ جنونيّ لتروا أكثر من شروق.

***

لن تصير القصيدة أرضاً بغير النار

لن تأتي الحرية بغير النار..
تعالوا إليّ نصنع الجحيم..

تعالوا إلى شمالي،
سيروا جهة أيّ شمالٍ تصلوا..
هاتوا شيطنات طفولاتكم الشقية
هاتوا غلمات الصبا والشباب
هاتوا أغانيكم
هاتوا الأشياء والعدم..

تعالوا إليَّ
هيّأتُ العشاءَ من ضباب أعماركم
عصرتُ مناماتِ اليقظة خمراً
مرحباً.. مرحباً
كلوا
واسهروا
وناموا
هناك أَسِرَّة للجميع
خشبها الأحضان التي تشتهون معانقتها..
ناموا في الثامنة صباحاً من ساحة شمدين
ناموا في نارها
علكم تصبحون على سؤال الحريق:
هل نحن جمرٌ يتلظى فتلمع في لهيبه شوارع وبيوت؟
أم نحن رمادٌ يحاول التذكر متى كان بيوتاً وشوارع؟
ناموا في النار

فيها الجواب...

لا تبحثوا عن موسيسانا وقامشلي، لا تنقبّوا عن عامودا،
لن تجدوا شمالاً في الشمال ولا كرداً،
وهمٌ بوهمٍ
الحقيقة دفترٌ في حقيبة مسافرٍ يتبع نجماً
دون أن يدري أنه البقية من جذوة نجم هوى
في الثامنة صباحاً من ساحة شمدين.

تصبحون على النار..
تصبحون على النار..

مسرى الأطلال

إلى يعرب العيسى

١

من لهذا العالم غيرُ العتابا؟؟
الجدّاتُ المتعباتُ في ظلالِ النّخل
أمِ النخّل المستفيءُ ظلالَهنّ؟؟

نساءٌ لهنّ شكلُ الأبياتِ رباعيّةِ الإيقاع،
ثنائيّةِ المعنى..
وشجراتٌ بقامات تحاكي الآهاتِ
في أوّل الأبيات
على أول ربابٍ..

من للعالم غير العتابا؟
العتابا التي لا نعرفُ أهي نخلاتٌ أم جدّاتٌ!

ومن للعتابا؟

٢

هجروني حين ملأتِ البثور وجهي،
تركوني وحيداً في الخيمة مع الكلب
مثل الخيمةِ والكلبْ
فانتقلت عدوى البثور إلى قلبي.

وحيدَيْنِ في الخيمة الأخيرة
يا شِيْر،
يا كلبي وصاحبي،
وليس سوى الخيمةِ ونباحكَ..

لو تستطيع حمل الربابة
لتنضح منها عتاباً لأهلٍ هجروا الابن المريض
ومضوا تاركين
من خلفهم
أبياتَ عتاباته تتبدّ مثل نباحٍ
في زوايا هذا الليل.

تركوني مثل ناقةٍ

جمّالهُا الشيطانُ وضع على ظهرها الأرضَ هودجاً
فترنّحتْ وتوكأتْ على ريح تترنّحُ هي الأخرى
وتوازنتْ بالعضّ على الأسنان
حتى كسّرتها.

يا شِيزْ
لا تبك،
لا تنبح،
ليس لنباحك أن يبلغ صحراء حمصَ وحماةْ..
لنجرحْ يدينا
لنمزجْ الدّم
على عادة أهل هذه الصحراء..
أو دعك من هذا،
ماذا فعل دمي الذي فيهم؟
سوف نتآخى بالنّباح.

٣

من صنعَ الرّبابةَ الأولى؟؟
كيف خطرتْ على بالِهِ؟؟

لتفهمْ ذلك الغريب،
فكّر؛
ماذا تفعل حين لا يكفيك البكاء؟

يا ليتني ربابةٌ لذلك الهاربِ من الثّأر،
بوترٍ يتيم يعلن ثأره على كل آدميّ،
متى أوقع الجميع في كمائنه،
يبكون طلباً للغفران..

يا ليتني ربابةٌ،
ربابة فقط،
تحبو محمومةً على الرّمال،
وفي وسط الصحراء،
تطلق عواصفها
لتجلب الأطفال مسرنمين،
وتمضي بهم بعيداً إلى كوكب مجهولٍ.

٤

يا أطلالُ، يا جسدي المريض، يا بشوري،
يا كلماتي البدوية، يا لحنَ البيات؛
سوف أرتدي ثيابي بالمقلوب
بينما يداي تلطمان الرأس
وتهيلان تراباً عليّ.

أنا من أدفن نفسي
وأنا من يندبها.

٥

كنت أغنيهم هكذا:
أهلي نجمٌ يدل السُّراة..

أهلي نسائم تشفي المريض
أهلي بيتٌ على كل درب
أهلي دِلال قهوةٍ تموت إذا فرغت.

أهلي غيوم
تظلل الراحلين
وتزرع طريقهم بالكمأ.
أهلي..
وأهلي..
صارت سماؤهم ثقوباً
ودلالهم أكلها الصدأ
وبال على نارهم قطاع الطرق..

٦

تمر امرأةٌ
تسقيني منقوع الأعشاب..

: يا غريبةُ،
يا أمَّ المرضى والوحيدين
قطّري قهوةً مُرّةً في عيوني
قطّريني الآن،
تحتاج العيون إلى العمى
كي تتعلّم قراءة الغيب.

أضرب في الرمل الآن
وأقرأ ما جرى..

أهلي مضوا هاربين
وصاروا ما كانوا يخشونه،
صاروا تحتَ أقدام من كانوا أذناباً.

٧

أنتِ مسبيةٌ!
ليتني قتلتك وحملتك في مراثٍ!!
أتذكر:
ضفرنا شعرنا في جديلةٍ
وسرنا أياماً
لنقول للناس إن زمنَ الخرافة لم ينته
وعليهم أن يرووا
عن حبٍّ منح رأسينِ لجسدٍ واحدٍ.

أنا والكلب والحصان
دقَقْنا اسمكِ وشماً على الزنود
وأعلناكِ عشيرةً
لأبناء السبيل..

كنتِ ترتعشين فتودعين شفاهكِ في الزّوابع
وكان عليّ أن أدخل فيها لاستلام مراسيل القبل..
فتتنهدين محركةً الكثبان من أمكنتها..

كنتُ أقول:
عارٌ على من يشربون القهوة ألا يشكروا شاماتكِ

وكنت تقولين: فلتكنْ صانعَ قهوتي إذاً.

جعلتُ سريرَكِ سرجَ الحصان
جعلتُ داركِ الحداء..
وإذْ نمضي كنتِ تلدينَ ظباءً وطيور قطا
وتعيدين الحبَّ إلى زمنِهِ الرعويِّ..

ها هي بثوري تنتقل إلى الرمل
ها هي حباته تصير جلطاتٍ في قلب الصحراء.

٨

مات شِيزْ
فحملتُ نباحه فوق أحمالي
ربما سوف أحتاجه بدلاً من الكلام.

أمشي
وجهي خرابٌ نحته الجدريّ والهجران
ودربي مرصوف بالقتلى والراحلين

الناس كلهم بداةٌ
والعالم صحراء كبرى..

أنا الأطلالُ تسير
أنا الأطلال تفتش عمن يبكي عليها
فلا تجد إلا من تبكي عليهم.

أنا الأطلال تسير إلى أهلها
ليس حباً بالوصول إلى من يبكي
بل كي تستقيم الرحلة..

لا بدّ من البكاء مبتدأً
لا بد من عيون
ليكون المنتهى منتهى.

٩

نبتَ الشّيبُ في بثور وجهي
نبتت خزامى بين الأصابع..

قبل هذا،
في الطريق،
ضاجعتُ فرسي الشقراء
فأنجبتْ منها ولداً
أرضعتُهُ كلَّ لبون مع جرائها

حين حبا ابن الفرس، ابني،
إلى السيف
قلتُ: الآن صار بوسعي أن أموت.

وداعاً
لا أريد شيئاً
سوى أن تجعلوا تابوتي ربابة.

إشارات:

* يستند النص على سيرة الشاعر البدوي عبد الله الفاضل، الذي عاش في البادية السورية بدايات القرن التاسع عشر، وينسب إليه تأسيس فن العتابا. ومن المعروف أن القصة المأساوية لهذا الشاعر قد بدأت مع إصابته بمرض الجدري، حيث خافت منه القبيلة وظنّت أن العدوى ستصيب الجميع، والبدو معروفون بخوفهم الهوسي من الأمراض.

في ليلة ظلماء قرروا مغادرته، تاركين إياه في خيمة مع كلبه شِيْر وجمل مذبوح يكفيه ليأكل في الأيام الباقية قبل موته كما ظنوا. ما حدث أن قافلة عابرة توقفت ورأت حال عبد الله، وكان فيها امرأة تعرف علاج هذا المرض، فظلت تطببه حتى شفي تماماً.

حين استعاد عافيته مضى في رحلة طويلة بحثاً عن أهله، انتهت به قهوجياً لدى زعيم إحدى القبائل. حتى اعترف بشخصيته الحقيقية، فساعده ذلك الشيخ بالوصول إلى أهله.

* شِيْر: كلب الشاعر، وقد ورد ذكره في بعض أبياته الشهيرة.

* تنتشر لدى بعض بدو سوريا قصة أسطورية عنوانها "ابن الفرس"، وهي تتحدث عن أن عبد الله الفاضل لم يعد لأهله لأنه اشتاق لهم كما عبر في أبياته الشجية، بل لكي ينتقم منهم، وهذا ما حدث حيث عمل على إدخالهم بالحرب تلو الحرب، حتى محا أثرهم، وحين بقي وحيداً مع فرسه ضاجعها وأنجب منها فتى عقيماً.

فهرس المحتويات

فاتحة ٥

شوارعُ تسير وحدها ٧

بريد الغرباء ٥١

من الغائبين إلى الغائبين ٦٣

مجرد إيقاعات.. .... ١٠١

النَّاس في الحرب ١٠٣

في الثامنة صباحاً ١٠٧

مسرى الأطلال ١١٣

أكتبُ إليكِ من تخوم المجزرة..

رائحة الهواء دمٌ..

طعمُ الصمت الليليّ كراهية مجفّفة..

في اللحظة التي أدق فيها الكيبورد

يدقّ آخرون صدورهم بكاةً،

ولا يتوقفون عن ضرب الرؤوس بالجدران وجدران الهواء.

وبينما ينادون مفجوعين في آذان موتاهم

أناديكِ كالمثكول والأرملة واليتيم..

أناديكِ بحرارة الوجع الطازج..

أكتب لأناديكِ

لا لكي تردي أو لتأتي،

إنما لأطمئن كم تبقى لدي من النداء!

ISBN 978-88-99687-31-1

9 788899 687311

المتوسط